ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 04 سبتمبر 2019

فلسفة الإلحاد

إيما جولدمان
ترجمة: غيضان السيّد علي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019
All rights reserved © 2019

فلسفة الإلحاد[1(*)]

المؤلّفة: **إيما جولدمان** (Emma GOLDMAN) (روسيا)
المترجم: **غيضان السيّد علي** (مصر)

1(*) The Philosophy of Atheism by Emma Goldman First published in February 1916 in the *Mother Earth* Journal.

مقدّمة المترجم:

إذا كانت فلسفة الإلحاد The philosophy of Atheism من أهمّ مباحث فلسفة الدين، فإنّ مقالة "إيما جولدمان Emma Goldman" (1869 - 1940) التي كتبتها تحت عنوان: "فلسفة الإلحاد" - رغم قصرها - تعدّ من أهم المقالات المؤسِسة لهذا المبحث في الزمن المعاصر؛ حيث وُجِد لها صدى كبير عند جُلّ الفلاسفة المُنظّرين والكُتّاب والباحثين المهتمين بهذا المبحث الفلسفي؛ ولذلك كانت ضرورة ترجمتها للعربيّة بمثابة ضرورة بحثيّة وثقافيّة مهمّة، وقد راعينا في نقلها للعربيّة الموضوعيّة التامّة. فكان هدفنا الوحيد هو أن نجعل جولدمان تخاطب المتلقّي العربي بلسان عربي مبين، فلم نحرص أبدًا على أن نستنطقها أو نتكلّم نيابة عنها. فمن هي إيما جولدمان؟ وما هي أهمّ مضامين مقالتها الشائكة؟ هذا ما سنجيب عليه قبل أن نعرض لترجمة المقالة.

من هي إيما جولدمان؟

ولدت "إيما جولدمان" في كوفنو التابعة للإمبراطورية الروسية حينذاك (كاوناس الليتوانية حاليًا) في 27 يونيو 1869 لأسرة يهودية فقيرة، ولأمّ تزوجت أكثر من مرة، وأب قاس استخدم العنف في تربيتها ورفض أن تكمل تعليمها، وألقى بكتبها في النار، لكنّها تابعت تعليمها بشكل مستقلّ. هربت من قمع أسرتها للعيش بحرية، وعملت على ماكينة للحياكة في مصنع، وتزوّجت في فترة مبكّرة من زميلها في العمل الذي شاركها حبّها للكتب والرقص والسفر، لكنّها انفصلت عنه بعد أقلّ من عام تقريبا. سافرت إلى الولايات المتّحدة بمساعدة أخواتها، وفي يومها الأوّل هناك تعرّفت على رفيق عمرها الكاتب اللاسلطوي ألكسندر بيركمان الذي تزوّجته واشتركا معًا في إذكاء روح بعض الاضطرابات السياسية، فتم اعتقالهما بتهمة "التحريض على الشغب"، وفي هذه الفترة كتبت إحدى الصحف عن جولدمان أنّها "جان دارك" جديدة. وفي المعتقل، عانت من نوبة روماتيزم فأرسلت على أثرها إلى المستوصف الطبي، وهناك صادقت الطبيب وبدأت بدراسة الطب وقرأت العديد من الكتب، وعندما خرجت استقبلها حوالي 3000 شخص، وانهالت عليها الطلبات لإلقاء محاضرات ومقابلات. سُجنت "إيما جولدمان" عدّة مرات بتهم التحريض على الشغب وحثّ الشباب على عدم التجنيد في مشروع التجنيد الإجباري الجديد، بدعوى أنّها أممية وضدّ الحروب، وتمّ ترحيلها إلى روسيا، ثم عادت إلى أوروبا وأمريكا مرة أخرى. واصلت نشاطها الذي تمحور حول اللاسلطوية، فكانت أكبر داعية في بداية القرن العشرين للحب الحرّ، وناقدة قويّة للزّواج، ومدافعة شرسة عن المثلية الجنسية.

دارت محاضراتها التي ألقتها في الولايات المتحدة وأوروبا حول: الإلحاد، وحرّيّة التعبير، والرأسمالية، ونقد الزواج، والحب الحرّ، والمثلية الجنسية، وحق النساء في الاقتراع. وُصِفَتْ بأنّها أخطر امرأة في أمريكا، وبأنّها أهم الشخصيات في تاريخ اللاسلطوية. والحقيقة أنّ اللاسلطوية لدى "جولدمان" كانت قضية حياة، فقد كانت قضيّتها الأولى التي عايشتها معايشة تامة. وتعني اللاسلطوية تحرير العقل البشري من سيطرة الدين، وتحرير الجسد البشري من سيطرة الممتلكات، والتحرر من قيود الحكومات وأغلالها. ومن ثمّ، فاللاسلطوية تعني نظامًا اجتماعيًا قائمًا على التجمّع الحر للأفراد بغرض إنتاج ثروة اجتماعية حقيقية، وهو أمر يضمن لكلّ إنسان حرّيّة الوصول إلى الأرض والتمتع الكامل بضرورات الحياة وفقا للرغبات والأذواق والميول الفردية.

وفي عام 1906، أسّست جولدمان مجلّة "أمّنا الأرض Mother earth" لنشر أفكارها حول اللاسلطوية والإلحاد. وقد نشرت بها العديد من المقالات كان من أهمها مقالها حول "فلسفة الإلحاد" الذي نحن بصدده، حيث نظرت إلى الدين على أنّه أداة أخرى للسيطرة والهيمنة، وأنّ الأديان تملي على الأفراد تصوراتها في الدنيا وتعد الفقراء وعدًا كاذبًا بمستقبل باهر في السماء. وقد أثارت مقالاتها المعادية للدين من قبيل: "رياء الطهرانية"، و"فشل المسيحية"، و"إدانة مجتمع الرقيق" غضب وعداوة العديد من الطوائف الدينية في أوروبا والولايات المتّحدة.

توفّيت "إيما جولدمان" إثر سكتة دماغية في تورنتو في 14 مايو 1940، ودُفنت بالولايات المتحدة الأمريكية في مقبرة فالدهايم (فورست هوم حاليًا) بولاية إلينوي غرب شيكاغو. واستلهمت العديد من الأعمال الفنّية في الولايات المتحدة سيرتها الذاتية وقصّة حياتها في العديد من الأعمال السينمائية والمسرحية. وتركت مجموعة كبيرة من الكتب والمقالات كان أهمها: الأناركية ومقالات أخرى (1910)، الأهمية الاجتماعية للدراما الحديثة (1914)، خيبة أملي في روسيا (1923)، أعيش حياتي (سيرة ذاتية) (1931)، إيما الحمراء تتكلّم (1972)، وهو الكتاب الذي جمعت فيه الباحثة النسوية المعاصرة "أليكس شولمان" مجموعة متفرّقة من خطب ومحاضرات وكتابات متناثرة لإيما جولدمان، وكان ذلك بسبب إحياء الاهتمام بتراثها من قبل عدد من الباحثين النسويين خلال سبعينيات القرن الماضي.

أهمّ مضامين مقالة جولدمان في فلسفة الإلحاد:

انطلقت مقالة "فلسفة الإلحاد" من مبدأ محوري فحواه: أنَّ جوهريّة الإنسان وقدرته وحريته، وكافة القيم الإنسانيّة السامية بدت مسلوبة من الإنسان لصالح القدرة والمشيئة الإلهيّة. ولتحليل كافة المضامين التي تضمنتها مقالة جولدمان ينبغي علينا أن نعرف أولًا ما المقصود بالإلحاد؟

يعني الإلحاد Atheism لغويًا الميل عن القصد، والعدول عن الشيء، فيقال: أَلْحَدَ أي مالَ وعدَل، وألحد الرجل إذا مال عن طريق الحق. والمُلحدُ: العَادلُ عن الحق المُدخِلُ فيه ما ليس فيه[1]. ويُقال أَلحَدَ في الدين ولَحَدَ؛ أي حَادَ عنه وطَعَنَ فيه[2]. والإلحاد في الاصطلاح يُقال على عدّة حالات، منها: إنكار وجود الله، وإنكار النبوات بكل ما فيها، وإنكار الكهنوت، وإنكار البعث، وإنكار العالم الغيبيّ.

ونظرًا لتعدّد معاني الإلحاد واختلافها من عصرٍ إلى آخر، ومن مجتمعٍ إلى آخر، ومن حضارةٍ إلى أخرى[3](*) يذهب البعض إلى أنَّ أشهر تحديد لمصطلح الإلحاد هو: إنكار وجود الله، أو «الاعتقاد بأنَّه لا يوجد إله من أي نوع»[4]، والمُلحد Atheist هو الذي يحكم على عبارة «الله موجود» بأنّها قضية كاذبة، والمُلحِد مُنكر لله، قاطع في إنكاره، ومُتعصب لهذا الإنكار. ولهذا اقتصرت بعض الموسوعات والمعاجم الفلسفيّة على تعريف الإلحاد بأنّه فقط إنكار وجود الله، مثل «موسوعة لالاند الفلسفية» التي عرّفت الإلحاد في جملة واحدة وهي «عقيدة قوامها إنكار وجود الله»[5]. وهذا هو المعنى الذي تقصده إيما جولدمان في مقالتها.

في حين يؤكّد معجم الأديان العالمية أنَّ الإلحاد مصطلح متعدّد الدلالات، وأكثر دلالاته انتشارًا واستخدامًا هي إنكار وجود الله. ومن المعروف أنَّ المُنكرين لوجود الله يرفضون كل قضايا ما بعد الطبيعة الأخرى وكافة الغيبيات، مثل: الروح، والملائكة، والنبوات...إلخ. ويرفضون الاعتراف بالعلل الأولى للطبيعة؛ لأنّها أمر يجاوز الإحساسات والمشاهدات. ومن ثمَّ يكون الإلحاد نقدًا للمعتقدات الغيبيّة التي تتعلّق

---

1 ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثالث، مجموعة من المحققين، بيروت، دار صادر، د.ت، ص 388-389

2 جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الأول، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1982، ص 119. (مادة ل ح د).

3(*) الإلحاد في التراث العربي والحضارة العربيّة يختلف عنه في الحضارة الغربيّة؛ فإذا كان الإلحاد في الغرب هو نقد للمعتقدات الغيبيّة التي تتعلق بالله أو الموجودات القدسية ونكرانها، فإنّ الإلحاد في الحضارة العربيّة مختلف عنه؛ إذ يطلق على من يؤمنون بوجود الله لكنهم ينكرون النبوة، أو ينسبون التحكم في بعض الظواهر الكونية إلى غير الله الواحد الأحد، أو يصفون الله تعالى بما يتنزه عنه من صفات وأفعال، أو من يؤولون أسماءه على ما لا يليق به، أو من يعتقدون في الإنسان في صورة وعي ووجود مبدع دون الإيمان بوجود مفارق، أو من ينكرون العناية الإلهيّة مع التسليم بوجود الله، أو من يعتقدون أنَّ إنسانًا ما له طابع إلهي أو من أصل إلهي، أو من يقومون بتحريف تفسير آيات القرآن أو الطعن في صحتها. راجع: محمّد عثمان الخشت، معجم الأديان العالمية، المجلّد الأوّل، القاهرة، مركز جامعة القاهرة للغات والترجمة، الطبعة الثانية، 2016، ص 104-105 (بتصرّف).

4 John Hick, Philosophy of Religion (Englewood Cliffs: Prentice-Hall, Inc., 1963), p. 4

5 أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول (A-G)، بيروت /باريس، منشورات عويدات، تعريب: خليل أحمد خليل، إشراف: أحمد عويدات، الطبعة الثانية، 2001، ص 107

بالله أو الموجودات القدسيّة ونكرانها[6]. ويصبح المُلحد - كما عرّفَهُ أشهر المنظّرين للإلحاد في العصر الراهن وهو ريتشارد دوكينز Richard Dawkins في كتابه الشهير "وهم الإله The God Delusion": "بأنّه الشخص الذي لا يؤمن بوجود شيء فيما وراء العالم الطبيعيّ الماديّ، وليس هناك من مبدعٍ خالقٍ وراء هذا الكون المرئي، ولا هناك روح تبقى بعد فناء الجسد، ولا معجزات، لكن هناك بعض الظواهر الطبيعيّة التي لم نفهمها بعد، إذ ثمة أشياء كامنة فيما وراء هذا العالم ما زالت غير مفهومة لنا بشكلٍ كامل»[7].

وبناء على ذلك، يكون الإلحاد نهجًا في التفكير يرفض الاعتقاد بكل ما يجاوز الطبيعة فكرًا ووجودًا ومثالًا متطلبًا. ويُرجع الفكر الإلحادي أصل الدين إلى بواعث نفسيّة واقتصاديّة وثقافيّة واجتماعيّة كما هو الحال عند إيما جولدمان. ويُبنى المذهب الإلحادي - في الغالب - على الماديّة التي تنبذ كلّ تصوّر فكري يُخرج الإنسان من دائرة واقعه الملموس. وقد واكب المذهب الإلحادي في تطوره تطور العلوم والمعارف، وفي كل حقبة يعكس المدى الحقيقيّ لما وصل إليه المستوى المعرفيّ في الفكر الإنساني؛ ولذلك كان لكل عصر إلحاده الذي يستنفر الشعور الديني، ويضطره إلى تبرير نشوئه وتأسيس مقولاته وتدعيم رؤاه.[8]

وقد أثارت مقالة إيما جولدمان أفكارًا متعدّدة مثّلت أهم جوانب فلسفة الإلحاد، وأبرز هذه الأفكار هي:

- إنَّ أيّ مصطلح يمكن استخدامه للتعبير عن التأليه هو في ذاته مصطلح غامض غير محدّد، وكلّما تقدم الإنسان زمنيًا ومعرفيًا وقف بشكل جليّ على هذه الغموض وانعدام التحديد.

- لم يعد الاعتقاد في وجود إله يمثل القوة نفسها التي كان يمثلها من قبل، حيث لم يعد يوجّه مصير الإنسان من خلال القبضة الحديدية التي كان عليها في سالف العصر.

- إنَّ مفهوم الإله قد تأصّل في النفس البشرية من خلال دافعي الخوف والفضول، فالخيال المضطرب للإنسان البدائي هو الذي دفعه لينسج فكرة الإله.

- اضمحلال التأليه وذبوله، فالعالم كله اليوم يتجه إلى الإلحاد. ويبدو هنا تأثر غولدمان الواضح بماركس الذي رأى أنّ العالم في القرون القليلة القادمة سيصبح بلا أديان. ولا شك أنهما كانا مخطئيْن، فالقرن الواحد والعشرون أصبح قرن العودة إلى الدين.

---

6 محمّد عثمان الخشت، معجم الأديان العالميّة، المجلّد الأول، ص ص 104-105

7 Richard Dawkins, The God Delusion, Bantam Press, London, 2006, p.14

8 مشير باسيل عون، نظرات في الفكر الإلحادي الحديث، بيروت، دار الهادي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2003، ص 93

- أصبح الدين سلعة رائجة تدرّ أرباحًا يتم استغلالها من قبل المؤسسات التي تهدف للربح، ولا تفوق تجارة الدين مكسبًا وربحًا إلاّ تجارة المدافع والذخائر.

- التسامح الديني الأرقى هو عدم الاهتمام بماذا يعبد الناس.

- الدين يُستخدم كسوط يضرب به الشعب لتحقيق الطاعة والوداعة والرضا. وهي فكرة ماركسية سابقة لخّصها ماركس في عبارته الشهيرة "الدين أفيون الشعوب".

- إنَّ فكرة الإله تبدو فكرة غير مجدية في الواقع المعيش؛ فبوذا لا يعبأ بمجاعة الهندوس الغاضبين ولا بفقر وتعاسة شعب الصين. ولا يزال يسوع يرفض القيام من بين الأموات، لينقذ المسيحيين الذين يذبح بعضهم بعضا. ولا شك أنّ هذه فكرة قديمة أيضًا استغلّها الملحدون في كل زمان ليضعوا المتلقي، إمَّا أمام إله عاجز لا يستطيع انقاذ البشرية، وإمّا أمام إله غير مكترث بأوضاع البشر. ولا هذا ولا ذاك يليق بجلال الألوهية ومعناها.

- ترك الإله العالم للكوارث والشرور التي تكفي لملء السماء -حسب تعبير جولدمان- فالإنسان إذن يتم خداعه بواسطة الآلهة، ويتم خيانته بالرسل، ولذلك يجب عليه أن يتولى بنفسه تحقيق العدل على الأرض.

- إنَّ فلسفة الإلحاد تعبّر عن توسيع ونموّ العقل البشري. أمّا فلسفة الإيمان - إن جاز لنا أن نسمّيها فلسفة - فهي ثابتة محددة. ولذلك، فهي غير معقولة لأنّ العقل البشري غير ملتزم بالثوابت.

- إنَّ الأديان لا تخدم على هذه الأرض أيّ غرض آخر أكثر من أنّها محطّة مؤقتة لاختبار طاقة البشر على التضحية في سبيل الإرادة الإلهية، وعندما أراد الإنسان أن يختبر هذه الإرادة قيل له إنّ هذا يتجاوز قدرات العقل البشري المحدود.

- تهدف فلسفة الإلحاد - من منظور إيما جولدمان - إلى رفع الولاية عن البشر من سيطرة الآلهة، فالجنس البشري يُعاقب منذ فترة طويلة لأنّه هو الذي خلق الآلهة وعبدها.

- إنَّ فلسفة الإلحاد تعلِّم الإنسان أنَّ الأرض هي السماء المناسبة له.

- إنَّ المبادئ الأخلاقية الدينية قد أصبحت مبادئ نمطية فقدت كل حيويتها، فنظرة واحدة إلى الحياة اليوم بما فيها من صراعات وكراهية وجشع يثبت عقم الإيمان بالمبادئ الأخلاقية التأليهية.

ترجمة النصّ:

لإعطاء عرض كافٍ لفلسفة الإلحاد، سيكون من الضروريّ الدخول في خضمّ التغيرات التاريخية لمعتقد الألوهية منذ بدايته الأولى وحتى يومنا هذا، لكن هذا ما ينوء به نطاق هذه الورقة... ولتجاوز هذا الأمر، يمكن القول إنّ مفهوم الإله، والقوة الخارقة للطبيعة، والروح، والألوهيّة، أو أي مصطلح آخر من الممكن أن يعبّر في جوهره عن مفهوم التأليه[9]، يصبح غير محدّد وغامضا بشكل أكثر من خلال التتابع الزمني والتقدّم. وبعبارة أخرى، إنَّ فكرة الإله تصبح أكثر عموميّة فيما يتعلّق بالعقل البشري؛ لأنّ العقل البشري يتعلم فهم الظواهر الطبيعية والعلم بشكل تقدّمي يربط بين الأحداث الإنسانية والاجتماعية.

فلم يعد الإله اليوم، يمثّل القوى نفسها التي كان يمثّلها في بداية وجوده، فهو لم يعد يوجّه مصير الإنسان من خلال القبضة الحديدية التي كان عليها في سالف العصر. كذلك لم تعد فكرة الإله تعبّر عن نوع من التحفيز الروحي لإرضاء كافة أشكال الضعف البشرى. فقد اضطرّت فكرة الإله في ضوء مراحل التطور البشري إلى أن تكيّف نفسها مع كل مرحلة من مراحل شؤون الإنسان، حيث تتّسق تمامًا مع أصل الفكرة نفسها.

إنَّ مفهوم الإله قد تأصل في النفس البشرية من خلال دَافِعَيّ الخوف والفضول، حيث إنَّ الإنسان البدائى لم يكن قادرًا على فهم ظواهر الطبيعة التي تسبّبت في مضايقته، ولذلك رأى في كل مظاهر الرعب من حوله بعض القوى الشريرة الموجَّهة صراحةً ضدّه. ونتيجة للخوف والجهل نشأت كافة الخرافات، فالخيال المضطرب للإنسان البدائى هو الذي دفعه لينسج فكرة الإله.

وبكل بساطة، يقول الملحد والفوضوي ذو الشهرة العالمية "مايكل باكونين Michael Bakunin" في عمله العظيم "الإله والدولة": إنّ كل الأديان بآلهتها وأنبيائها وقديسيها، خلقها الخيال المتحيّز للإنسان الذي لم يبلغ التطوير الكامل والحيازة الكاملة لملكاته. وبالتالي، فإنَّ الأديان السماوية ليست سوى السراب الذي اكتشف فيه الإنسان، الذي تعالى بالجهل والإيمان، صورته الخاصة، لكن بصورة موسّعة ومعكوسة. فتاريخ الأديان، منذ بداياتها إلى تطورها إلى ذبولها أو اضمحلالها تدلّ على أنّها ليست شيئًا. ففكرة الألوهية التي خلقت بعضها البعض داخل الاعتقاد البشري ليست إلا نتيجة لتطوير الذكاء الجمعي وضمير البشرية، الذي سرعان ما اكتشف البشر من خلال تقدّمهم التاريخي تدريجيًا، أنّ كل ما فى أنفسهم أو ما هو موجود

9 مذهب التأليه Theism هو مذهب أولئك الذين يعتقدون في الألوهية، فإن قالوا بوجود إله واحد كانوا من أتباع مذهب التوحيد Monotheism، وإن قالوا بأكثر من إله كانوا من أتباع مذهب الشرك Polytheism، وإن قالوا بأنّ الله والعالم حقيقة واحدة إذا نظرت إليها من حيث هي علّة لذاتها فهي الله، ومن حيث هي معلولة لذاتها فهي المخلوقات. وقد كانوا من أصحاب مذهب وحدة الوجود Pantheism، وإن قالوا إنّ الله حلّ في مخلوقاته كانوا من أتباع مذهب الحلول Incarnation، فإن أقروا بالله وأنكروا الوحي والرسل والكتب المقدّسة والعناية الإلهيّة بحجة أنّ العقل وحده قادر على معرفة الله كانوا من القائلين بالدين الطبيعي Deism. ويقال التأليه في مقابل الإلحاد Atheism الذي يعني إنكار الألوهية في كلّ صورها (المترجم).

فى الطبيعة الخارجية أو حتى أيّ نقص كبير مهما كان، هو بسبب آلهتهم، وذلك بعد أن بالغ الناس وتوسّع خيالهم الديني إلى أبعد مدى، على طريقة الأطفال، في توهّم ما هو ديني. ومع كل الاحترام الواجب تجاه الميتافيزيقيين، والمثاليين الدينيين، والفلاسفة، والسياسيين، والشعراء، فإنّ فكرة الإله تعني التنازل عن العقل البشرى والعدالة، فهي الفكرة الأكثر حسمًا في نفي الحرية الإنسانيّة، وهي النهاية الضرورية التي تؤدي إلى استعباد البشرية من الناحية النظريّة والعمليّة.

وهكذا، فإنّ فكرة الله التي أُعيد إحياؤُها أو تضييقها وفقًا لضرورة الوقت، قد هيمنت على الإنسانيّة، وسوف تستمر في القيام بذلك حتى يتمكّن الإنسان من رفع رأسه فى يوم مشمس غير خائف، وبلا إرادة ضعيفة تجاه ذاته.

أمّا بالنسبة إلى الإنسان، فينبغى أن يتعلم ليعرف نفسه بنفسه، ويشكّل نصيبه الخاص به، وبذلك يصبح مفهوم الإيمان زائدًا عن اللزوم. فحينما يكون الإنسان قادرًا على أن يحدد علاقته مع أقرانه، سيكون قادرًا على تجاوز تعويله على الإله.

وبالفعل، فإنّ هناك علامات على أنّ التأليه الذى يمكن وصفه على أنّه نظرية في التأمل يمكن أن يُستبدل بمصطلح الإلحاد، والذى يمكن أن يطلق عليه علم التفسير أو البيان. فالأوّل يتعلق بغيوم الفلسفة العقلية، بينما الآخر لديه جذوره الثابتة في التراب. إنّها الأرض وليست السماء، التي يجب على الإنسان أن ينقذها إذا اعتبرناه حقاً أنّه المنقِذ.

إنّ ذبول التأليه هو المشهد الأكثر تشويقًا، خصوصًا كما هو جليّ في قلق المؤلهين مهما كانت اقتناعاتهم الخاصة. فقد أدركوا من خلال محنتهم أنَّ عامّة الشعب يتوجّهون يوميًا بشكل أكثر إلى الإلحاد وبشكل فيه معادة للدين، وأنَّ عموم الشعب قد أصبحت لديه إرادة هادئة لترك الما وراء العظيم وملكه السماوي للملائكة والعصافير، لأنَّ الكثير والكثير من الجماهير يصبحون أكثر انشغالا بمشاكل وجودهم الراهن.

فكيف لنا أن نعيد عامة الشعب لفكرة الإله، الروح، السبب الأول، وما إلى ذلك؟ فهذا هو السؤال الأكثر ضغطاً على المؤلّهين. لكن يبدو أنّ الميتافيزيقيا مثل كلّ هذه الأسئلة، لديها خلفية مادية واضحة جدّاً تتمثل في الدين، والحق الإلهي، والتواب والعقاب التي تصبح ذات علامة تجارية مميزة، فهي في الوقت الذي يمثل فيه الفساد الأكثر ضررًا تعدّ الصناعة الأكثر ربحًا في العالم ولا تفوقها صناعة أخرى سوى صناعة المدافع والذخائر. إنّها صناعة محو العنصر البشرى التي لا تعرف أيّ قانون، لأنّ أغلبية المؤلهين أُجبروا

على إدخال فكرة الله في كلّ موضوع، حتى لو لم يكن لها علاقة بالإله أو الوحى أو الما وراء العظيم. فلعلّ هؤلاء يشعرون حقيقة بأنّ البشرية يزداد ضجرها من مئة وواحدة من علامات الله.

كيف لنا أن ننحّي هذا المستوى المميت للاعتقاد التأليهي؟ إنّها حقاً مشكلة الحياة والموت لكل الفئات. وذلك بناءً على تسامحهم: ذلك التسامح الذي لا يقوم على الفهم، بل على الضعف البشري. ربّما يفسر ذلك تلك الجهود الحاضنة لكل المنشورات الدينية من أجل مزج الفلسفات الدينية المتنوّعة بالنظريات التأليهية المتعارضة في بوتقة طائفية واحدة، على نحو تبدو فيها أكثر التصورات الدينية المتعددة مثل شجرة إلهية واحدة تمثل الروح النقية للدين الحقيقي الوحيد، حيث يعمل الجهد المحموم على تأسيس أرضية مشتركة لإنقاذ الجماهير الحالية من التأثيرات "الخبيثة" للأفكار الإلحادية.

ومن سمات التسامح التأليهي أن لا يهتمّ أحد بماذا يؤمن الناس، حتى يؤمن الناس أو أن يتظاهروا بأنّ هذه هي الغاية المنشودة. فالاجتماعات والأنشطة الدينية "أيام الآحاد" تسبب الغضب لدى ذوي المشاعر المهذّبة، ولكنّها يمكن أن تؤثّر على الجاهل، فتخلق لديه حالة من الجنون. ومثل هذا التأثير قد يجد دعم واستحسان من القوى الدنيوية وخاصّة الروس والأمريكان وأصحاب رؤوس الأموال من رجال الأعمال. وهكذا يُستثمر رأس المال في "قدّاس الأحد". إنّ (Y.M.C.A)، والعلوم المسيحيّة، وغيرها من مختلف المؤسسات الدينية تعود بأرباح هائلة من الجماهير المهزومة والمكتئبة.

بوعي أو بدون وعي يرى معظم المؤلّهين في الآلهة والشياطين، الجنّة والنار، التواب والعقاب، سوطا يضربون به الشعب لتحقيق الطاعة والوداعة والرضا. والحقيقة أنّ الإيمان بالله قد فقد نفوذه بين الناس من قبل ذلك، ولكن نظرًا للدعم المشترك بين السلطة والقوة لم يضمحلّ هذا النفوذ تمامًا، وتمّ إثباته في الخنادق وساحات القتال كما هو الحال في أوروبّا اليوم.

ألم يصف المؤلّهون إلههم بأنّه إله الخير والحبّ؟ وبعد آلاف السنين لا يزال وعّاظ الإله يتعاملون مع سكرة الموت لجذب اهتمام الجنس البشري أكثر من اهتمامهم بفقر شعب الصين وتعاسته. ولا يزال بوذا غير عابئٍ بمجاعة الهندوس الغاضبين. ولا يزال يسوع المسيح يرفض القيام من بين الأموات لينقذ المسيحيين الذين يذبح بعضهم بعضا.

فالمغزى من كلّ الأغاني والمديح هو أنّ الإله يرمز إلى الرحمة والعدل. والظلم بين البشر يزداد، والمهانة بين الجموع في هذه الدولة تكفي لملء السماء. ومع ذلك أين الإله ليضع نهاية لهذا الظلم، وتلك

المخاوف والمهانات والأخطاء ضدّ البشر؟! فالإنسان، إذن، يتم خداعه بواسطة الآلهة، وتتمّ خيانته بواسطة الرسل، ولذلك يجب عليه أن يتولّى بنفسه تحقيق العدل على الأرض.

إنَّ فلسفة الإلحاد تعبّر عن توسّع ونموّ العقل البشري. أمّا فلسفة الإيمان - إن جاز لنا أن نسمّيها فلسفة - فهي ثابتة ومحدّدة. وأيّة محاولة لاختراق ألغازها، من وجهة نظر إيمانيّة، تعني عدم الإيمان بالقدرة المطلقة في التحكّم بكل الأمور وإنكار الحكمة الإلهيّة خارج الإنسان. ولحسن الحظ، مع ذلك، فإنّ العقل البشري لم يكن أبدًا، ولا يمكن أن يكون، ملتزمًا بالثوابت. وبالتالي، فهو يمضي قدما في مسيرته القلقة نحو المعرفة والحياة. فيدرك العقل البشري أنّ الكون ليس نتيجة عمليّة خلق إبداعية عن طريق ذكاء صانع إلهي خلقه من العدم، وأبدع من العماء تحفة مكتملة. ولكنّه يرى أنّ هذا الكون إنتاج قوى فوضوية تعمل عبر دهر من الزمان، ومن خلال عديد التصادمات والاجتياحات. وتبلور من خلال موجات المدّ والجزر عبر مبدأ الانتخاب الطبيعي الذي يدّعي المؤلهين أنّه تعبير عن حالة من النظام والجمال التي تعكس فعل الخالق الإلهي. كما يشير جوزيف ماكابي Joseph McCabe جيّدًا إلى وجود الله: «إنّ قانون الطبيعة ليس صيغة وضعها المشرِّع، لكنّه مجرّد ملخّص للحقائق المرصودة (مجموعة من الحقائق). فالأشياء لا تتصرّف بطريقة خاصة، لأنّ هناك قانون، لكنّنا نذكر «القانون»، لأنّهم يتصرّفون بهذه الطريقة».

وتمثّل فلسفة الإلحاد ذلك التصوّر إلى الحياة بدون أيّ موجودات ميتافيزيقية أو تنظيم إلهي. إنّها تصوّر فعلي وحقيقي للعالم الواقعي باحتمالاته التحررية والامتدادية والجمالية في مواجهة عالم غير واقعيّ بروحانيّاته ووحيه ومعجزاته، والذي يبقي الإنسانية في مهانة وعجز.

وثمّة مفارقة خطيرة، فمن البديهي أنّ وجودنا الحياتي في هذا العالم المرئي الحقيقي كان ينبغي أن يكون طويلاً جدًا تحت تأثير التأمل الميتافيزيقي بدلًا من قوى الظواهر المادية. فتحت سوط الأفكار التأليهية لا تخدم هذه الأرض أي غرض آخر أكثر من أنّها محطّة مؤقّتة لاختبار طاقة البشر على التضحية في سبيل الإرادة الإلهية. ولكن في اللحظة التي حاول الإنسان أن يتأكّد من طبيعة هذه الإرادة قيل له إنّ ذلك يتجاوز الذكاء البشري المحدود، ليرضخ بذلك الإنسان لكلّ القوى اللامتناهية التي يحيط بها غبار يحجب رؤيتها على الحقيقة. إنّ انتصار فلسفة الإلحاد تعني تحرير الإنسان من كابوس الآلهة؛ أي إنّها تعني ذوبان الأشباح المفارقة. نقول مرارًا وتكرارًا إنّ نور العقل يبدّد الكابوس التأليهي، لكن أعاد الفقر والبؤس والخوف خلق الأوهام سواء أكانت قديمة أم جديدة. ومهما كان شكلها الخارجي، فإنّها تختلف قليلًا في جوهرها. إنّ الإلحاد، من جهة أخرى، وفي صورته الفلسفيّة يرفض طاعة، ليس فقط، المفهوم النهائي للإله، ولكنّه يرفض كل أشكال العبودية لفكرة الإله، وبناء على هذا النحو، فهو يعارض المبدأ التأليهي ككل. فالآلهة في وظيفتها

الفردية ليست نصف ضارة كمبدأ التأليه الذي يتمثل في الاعتقاد بما هو مفارق للطبيعة أو حتى الإيمان بقوة مطلقة قادرة على حكم الأرض ومَنْ عليها من البشر. إنّه الإيمان بإله ذي حكم مطلق، بما له من تأثير ضارّ على الإنسانية، وتأثير معطّل للفكر والعمل، والتي يحاربها الإلحاد بكل ما أوتي من قوّة.

إنّ لفلسفة الإلحاد جذورا ضاربة في أعماق هذه الحياة، وهدفها هو رفع الولاية عن البشر من سيطرة الآلهة، سواء كانوا يهودا أو مسيحيين أو محمديّين، أو بوذيّين أو براهميّين. إنّ الجنس البشري يعاقب بشدّة منذ فترة طويلة، لأنّه هو الذي خلق الآلهة وعبدها. فلا شيء، ههنا، سوى كثير من الألم والاضطهاد الذي عانى منه الإنسان منذ أن بدأ التأليه. وليس هناك سوى طريقة واحدة للتخلّص من هذا الخطأ هي أن يحطّم الإنسان تلك الأغلال التي ربطته بأبواب الجنّة وأبواب الجحيم، حتى يتمكّن من البدء في الخروج عبر وعيه اليقظ والمستنير إلى عالم جديد على هذه الأرض.

فقط، وبعد انتصار الفلسفة الإلحاديّة ورسوخها في أذهان وقلوب البشر سوف تتحقق الحرية والجمال. فالجمال الذي هو منحة من السماء أثبت أنّه بلا فائدة، ومع ذلك فإنّه يصبح حافزا حيويّا وجوهريّا عندما يتعلم الإنسان أن يرى الأرض هي السماء المناسبة له. فالإلحاد يساعد البشر بالفعل على تحريرهم من الاعتماد على الثواب والعقاب السماوي الذي يسبّب ضعفا وفقرا في الروح.

لِمَ يصرّ كل المؤلهين على أنّه لا يمكن أن يكون هناك أيّ أخلاق أو عدالة أو صدق أو إخلاص بدون الاعتقاد في القوة الإلهية؟ إنّ هذه المبادئ التي أُسّست على الخوف والأمل، كانت دائما نتاجًا خادعًا للأنانية ومصدرًا للنفاق. أمّا بالنسبة إلى الحقيقة والعدالة والإخلاص، فهل تمّ استلهامها من أسلافهم وأقرانهم الشجعان؟ تقريبا الذين لا يدينون دائما... أي الملحدون، عاشوا، وماتوا وقاتلوا من أجل هذه المبادئ. لقد أدركوا أنّ العدالة والحقيقة والإخلاص ليست مشروطة من قِبل السماء، ولكنّها ترتبط إلى ما لا نهاية بالتغيّرات المتشابكة والهائلة التي تحدث في الحياة الاجتماعية والمادية التي يعيشها الجنس البشري. فهذه الحياة ليست ثابتة ولا أبدية ولكنها متقلّبة. فإلى أيّ حدّ يمكن أن تصل فلسفة الإلحاد؟ لا أحد يستطيع أن يتنبّأ بذلك حتى الآن. ومع هذا، يمكننا أن نتوقّع الكثير بالفعل، فلن يتمّ تطهير العلاقات الإنسانية إلاّ بنيرانها المتجدّدة من أهوال الماضي.

وقد بدأ الناس ذوو التفكير يدركون أنّ المبادئ الأخلاقية، التي فُرضت على البشرية من خلال الإرهاب الديني قد أصبحت قيمًا نمطية، ولذلك فقدت كلّ حيويتها. فنظرة إلى الحياة اليوم بما فيها من صراعات وكراهية وجرائم وجشع يثبت عقم الإيمان بالمبادئ الأخلاقية التأليهية.

يجب على الإنسان أن يراجع نفسه قبل أن يتمكّن من معرفة علاقته مع زملائه، فبروميثيوس[10] ظل مقيّدًا بالسلاسل في صخرة فترة طويلة من الزمان، وحُكم عليه أن يظل فريسة لنسور الظلام. فلا ترتبط ببرميثيوس وأنت تبدّد الليل وأهواله.

الإلحاد في نفيه للآلهة هو في الوقت نفسه التأكيد الأقوى للإنسان، ومن خلال الإنسان، تكون نِعَم الحياة الأبدية مقصدًا وجمالًا.

10 بروميثيوس شخصية أسطورية تعني ذلك العملاق الذي سرق النيران من أوليمبس وأعطاها للبشرية كما ذكرت الأساطير اليونانية (المترجم).

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2019

جميع الحقوق محفوظة © 2019